2022

نشأة وتطور اليوتوبيا عبر العصور

مي سمير عبده متولي

باحث دكتوراه العلوم السياسية

كلية الاقتصاد والعلوم السياسية

جامعة القاهرة

الملخص

منذ عصور الحضارة الأولى شغل عقل الإنسان فكرة بناء عالم أفضل، فالبحث الدائم والقلق عما وراء الواقع ومشكلاته ومآسيه كان الشغل الشاغل للإنسان الذي دفعه لبناء وتشييد حضارات عظيمة ملأت التاريخ بأمجاد عظيمة، وجعلت حياة البشرية سلسلة من خطوات تقدمية إلى الأمام، وانبثقت اليوتوبيا منذ نشأتها من رغبة إنسانية فطرية في الوصول إلى الفردوس، والظفر بالنعيم وفي سبيل تلك الرغبة بنى الإنسان منذ عصور سحيقة خيالاً ثرياً أمتلأ بتصورات مختلفة عن عوالم فُضلى لا فقر فيها ولا ظُلم ولا حاجة، وقد عبَّر الإنسان عن تلك التصورات بألوان مختلفة من الفنون مثل الشعر والأدب والرسم.

وقد تطورت تلك الرؤى اليوتوبية ومشروعات المُدن الفاضلة عبر مراحل التاريخ المختلفة، منذ عصوره الأولى وحتى يومنا هذا، وتنوعت تلك الرؤى بحسب كل مرحلة تاريخية، واختلفت الأحلام فيما بين الحضارتين الغربية والشرقية بما يُسهم في تقديم إطار تفسيري هام لتطور التاريخ السياسي للشعوب وحركة التاريخ، ويساعد في فهم أفضل للفكر السياسي وتطوره، إذ مثلت اليوتوبيا المرآة التي انعكست فيها مشكلات الواقع وقامت بوظائفَ هامة لتغيير هذا الواقع وتطويره إلى عالم أفضل.

الكلمات المفتاحية: اليوتوبيا – الفلسفة السياسية – الفلسفة السياسية الإسلامية – المدينة الفاضلة – الخيال السياسي

Abstract

From early civilization stages human seek to think about building better world, as human always searched beyond reality problems which pushed to establish great civilizations made human history a series of forward steps to future, and the utopia developed from human ambition to reach the heaven and win glory, which gave humans rich imagination filled with visions of better worlds with no poverty, oppression or need, and humans shaped this visions with different types of arts like poetry, drawing and literature.

These utopian visions and utopian city projects have developed through the various stages of history from its early ages to the present day.

These visions varied according to each historical stage and dreams differed between the Western and Eastern civilizations, which contributes to providing an important explanatory framework for the development of the political history of peoples and the movement of history and helps in a better understanding of political thought and its development, as utopia represented the mirror in which the problems of reality were reflected and carried out important functions to change this reality and develop it into a better world.

Keywords: Utopia – political philosophy – Islamic political philosophy – political imagination

مقدمة

هناك رؤى مختلفة حاولت عبر العصور تقديم تفسير تنظيري مُحكم للتطور البشري، والعوامل التي تتحكم في حركة التاريخ، وتنوعت تلك التفسيرات بين الرؤى الجدلية والصراعية والطبقية كمحاولة لتفسير التقدُم البشري، وقليل من الرؤى قد تنبهت لأهمية اليوتوبيا في التفسير التاريخي والسياسي لكثير من الأحداث والوقائع، فكما أن حركة التقدم لدى "ماركس" يمكن اعتبارها صراع الطبقة العاملة ضد البرجوازية للوصول إلى الدولة الشيوعية، فاليوتوبيا – كما لدى "مانهايم" و"بول ريكور" على سبيل المثال لا الحصر – وسيلة تفسِّر كيف يُحكم العالم في حركته الدائمة نحو الأفضل ونحو تحقيق الكمال، عبر رؤية سائدة مفادُها البحث عن عالم أفضل من خلال رسم شكل أمثل نموذجي للدولة والمجتمع والفرد، ويُصبح التاريخ من تلك الزاوية هو "مطاردة لليوتوبيات" (باومان، 2017: 111)، بحيث تصبح حركة التقدُم هي ملاحقة مستمرة للوصول لتلك الرؤى المثالية اليوتوبية دون الإمساك بها كُلياً، أو من ناحية معكوسة يمكن تفسير حركة التاريخ بأنها محاولات للهرب من رؤى يوتوبية فاشلة نحو عالم أكثر واقعية.

وتنبُع الأهمية السياسية لليوتوبيا باعتبارها مدينة متكاملة فُضلى تُؤسسُ على عدد من قواعد تنظيمية، وعلى رأس تلك المدينة الفُضلى فرد فاضل أو حكومة فاضلة ذات سمات محددة يضعها كل مفكر بحسب رؤيته الخاصة، فالحاكم الفاضل أو الحكومة الفاضلة هي الأساس الذي تقوم عليه أي يوتوبيا؛ لذا فالسياسة هي المكون الرئيسي لليوتوبيا، كذلك فإن مشكلات الواقع التي تدفع المفكرين للجوء إلى الخيال اليوتوبي هي بالأساس مشكلات سياسية تتعلق بالفقر والاستبداد وغياب العدالة والمساواة،

وهي مشكلات تضطر المفكر – بدافع من عدم الرضا عن الأمر الواقع – للبحث عن إجابات لإشكاليات سياسية كُبرى مثل العدالة والمساواة والحرية؛ لذا فأي يوتوبيا هي بالأساس مشروع سياسي خيالي يبحث عن الطريقة المُثلى لإدارة الدولة والمجتمع.

المشكلة البحثية

تنطلق المشكلة البحثية للدراسة من تلك العلاقة الجدلية بين الفكر والواقع، حيث تُقدم أدبيات الفلسفة السياسية اجتهاداتها بشأن النظام السياسي الأمثل انطلاقاً من رؤيتين متمايزتين للعالم، وتنطلق جُل دراسات النظام السياسي من إحدى هاتين الرؤيتين، الرؤية الأولى للعالم هي المثالية السياسية أما الرؤية الأخرى هي الواقعية السياسية.

وتنطلق المثالية السياسية من رؤية حالمة وخيالية للنظام السياسي، تقوم من خلاله برسم النظام السياسي الأمثل، عبر اجتهادات تبحث عن حلول لمشكلات الواقع باستخدام أساليب تنظيرية وذاتية للفيلسوف نفسه، وتنتمي الدراسات اليوتوبية إلى تلك المدرسة المثالية، التي تسعى إلى تشييد مثال يُحتذى به ويؤخذ منه، من أجل إصلاح الواقع مع التعالي عليه في الوقت نفسه وعدم الخوض في مشكلاته الجزئية زمانياً ومكانياً .(RUITINGA, 2011: 48–54)

أما مدرسة الواقعية السياسية فتشتبك مباشرةً مع الواقع السياسي، تبحث في مشكلاته ودقائقه، وتسعى لتقديم حلول جزئية وآنية لتلك المشكلات، بما يُسهم في استمرار الواقع السياسي وإصلاحه كما هو لا هدمه بالكامل وبناء آخر موازٍ على طريقة المدرسة المثالية(ROSHWALD, 1971: 100–107).

من هنا تتسائل الدراسة بشكل رئيس عن "مدى أهمية المشروعات اليوتوبية في تطور التاريخ البشري منذ عصوره المبكرة وحتى يومنا هذا؟ وكيف انعكس الواقع في مرآة اليوتوبيا ليُقدمَ سلسلة من المشروعات اليوتوبية التي أثَّرت بدورها في ذلك الواقع وتطوره؟"

وللإجابة عن تساؤل الدراسة الرئيس وما يتفرع عنه من تساؤلات فرعية، تنقسم الدراسة إلى عدد من المحاور:

المحور الأول: أهمية اليوتوبيا على مستوى الفكر والواقع.

المحور الثاني: وظائف اليوتوبيا.

المحور الثالث: تطور اليوتوبيا عبر العصور وينقسم هذا المحور إلى عدد من المحاور الفرعية، وهي:

- تطور اليوتوبيا عبر عصور الحضارة الغربية.
- تطور اليوتوبيا عبر الحضارات غير الغربية.

المحور الأول

أهمية اليوتوبيا على مستوى الفكر والواقع

ينطلق البحث عن أهمية اليوتوبيا من سؤالين رئيسيين، يُجيب الأول عن مدى قدرة اليوتوبيا على جعل العالم أفضل بالفعل، من خلال رؤية نظرية مثالية وخيالية عن الشكل الأمثل للحكم والمجتمع، أما السؤال الثاني يبحث عما قد يحدث في عالم الواقع إذا ما اختفت كتابات المدينة الفاضلة بالفعل؟، فبينما يبحث السؤال الأول عن مدى أهمية وجود الفكر الفاضل، يتناول الثاني فكرة غياب اليوتوبيا وتداعيات ذلك في الفكر والواقع.

ولكن قبل البحث في إجابة هذين السؤالين يجدر الإجابة على سؤال بديهي عن جدوى اليوتوبيا كموضوع للبحث والدراسة والاهتمام الأكاديمي، أو بعبارة أخرى لماذا قد يهتم بعض الباحثين بدراسة ظاهرة اليوتوبيا، وهنا نبحث عن أهمية اليوتوبيا لا على مستوى الفكر أو الواقع، ولكن ماذا قد تقدمه اليوتوبيا كظاهرة من إجابات وتفسيرات سوسيولوجية وأنثروبولوجية تعمق فهم الظواهر السياسية والاجتماعية المختلفة.

وتصبح اليوتوبيا مهمة نتيجة لاعتبارات عدة يأتي أولها من كون اليوتوبيا تعبيراً عما هو مفقود وغائب عن مجتمع أو حضارة ما، لذا فإن الدراسات اليوتوبية التي تظهر في أي مجتمع هي ركن رئيسي لفهم ذلك المجتمع، فدراسة اليوتوبيا ركيزة رئيسية من الانثروبولوجيا الثقافية أو التاريخ أو علم اجتماع المعرفة، ولذا فإن اليوتوبيا مادة خصبة للمؤرخين وعلماء الأنثروبولوجيا وعلماء الاجتماع والدراسات الثقافية.

من جهة ثانية تمثل اليوتوبيا نموذجاً يعكس بعض أو كل أجزاء المجتمع أو النظام السياسي، لذا فهي قد تستخدم كأداة إرشادية باعتبارها استكشاف لما هو محتمل أو مستحيل بشأن هذا المجتمع، كما تستخدم اليوتوبيا في النظرية الاجتماعية المعيارية باعتبارها المثال التنظيمي الذي يتم قياس الواقع عليه. (MUMFORD, 1928: 23)

وأخيراً قد ندرس اليوتوبيا عبر محتواها أو تأثيراتها في عالم الواقع؛ لأننا نؤمن بأن طموحات الآخرين ومحاولاتهم لتحديد سمات المجتمع الفاضل، تُشكل مصدراً لقناعاتنا الخاصة بشأن المجتمع الأفضل (LEVITAS, 2001: 26).

1- كيف تشكل اليوتوبيا العالم

تستهدف اليوتوبيا بالأساس بناء عالم أفضل؛ وللوصول إلى ذلك العالم فإن هذا يتضمن تغييراً ما؛ لذا فإن اليوتوبيا تتعلق بالتغيير الاجتماعي (MARTELL,2018: 3)، وتأثير ذلك التغيير قد يتم على مستوى الفكر؛ بأن يشكل الوعي الجمعي بشأن شكل العالم الأفضل الذي قد يسوده المساواة وغياب الملكية الخاصة على سبيل المثال، أما على مستوى الممارسة قد تُحدث تلك الكتابات الفاضلة تأثيراً كلياً أو جزئياً في بعض الأحزاب والحركات الاجتماعية في أرض الواقع، حيث انعكست أفكار "سان سايمون" و"فوريه" عن الاشتراكية بالتأثير في كتابات "ماركس" و"إنجلز" وهو ما دفع "إنجلز" لتسميتها بالاشتراكية اليوتوبية، بينما أطلق على مشروعه الخاص اشتراكية علمية، ورغم ذلك فقد قدمت المشروعات اليوتوبية الشيوعية منذ "أفلاطون" حتى "سان سايمون" و"روبرت أوين" إلهاماً لشيوعية "ماركس" و"إنجلز"، وهكذا تمكنت اليوتوبيا منذ عصور الإنسان الأولى من تقديم تراكم معرفي حول الشكل الأمثل للمجتمع والدولة مما ساهم في التأثير في الفكر والحركة.

إن اليوتوبيا تُسهم بشكل رئيسي في تشكيل التطور الذي يطرأ على المجتمعات التي تأتي فيما بعدها، وهو تأثير تجلى على سبيل المثال في يوتوبيا "توماس مور"، فهو لم يؤثر فقط في سائر المشروعات اليوتوبية التي جاءت من بعده وحاولت البحث عن عالم أفضل، وإنما ساهمت أفكاره المطروحة في روايته بشكل فعال في التحول الاجتماعي الذي شهدته بريطانيا بعد وفاة "مور".

كذلك فقد قدمت اليوتوبيا – كأداة نقدية للعصور التي ظهرت فيها – حلولاً فعالةً وخلاقةً لمشكلات عامة مكنت الأجيال اللاحقة من الاستفادة من تلك الحلول، كمشكلة تنظيم العلاقة بين الطبقات على سبيل المثال، والحفاظ على الصحة العامة والتسامح الديني بين أبناء المجتمع، كلها مشكلات عامة تظهر في كل عصر قدمت اليوتوبيات المتعاقبة لها حلولاً متنوعةً، جعلتها مادةً ثريةً للاطلاع والمساهمة في تجنب صراعات اجتماعية وسياسية كثيرة (HERTZLER, 1922: 280).

وترتيباً على ما قدمته اليوتوبيا من خيال خصب قدم اقتراحات وحلولاً مبتكرةً وتفصيليةً لقضايا ومشكلات عدة، أصبحت اليوتوبيا جزءاً من الهوية الفلسفية والفكرية فيما يخص الدولة والمجتمع،

فالعوامل التي تحكم هويتنا وتُشكِّلها ليست تلك فقط المستمدة من ماضينا وحاضرنا، وإنما هي أيضاً مستمدة من توقعاتنا للمستقبل، وبالتالي هوية فرد أو جماعة هي هوية الآمال والأحلام التي تترقب مستقبل أفضل، وهو ما يجعل اليوتوبيا جزءاً هاماً من مكونات الهوية (ريكور، 2002: 412).

كما تتجلى أهمية اليوتوبيا في كونها في حقيقتها مشروعات صالحةً لكل زمان ومكان، حيث حاولت الكتابات الفاضلة دوماً الخروج من أسر عصورها الزمنية الضيقة لتقديم مجتمعات فاضلة صالحة للتحقق في أي زمان وبخاصة في المستقبل، وبذلك أخرجت اليوتوبيات أفكاراً ثوريةً بالنسبة لعصورها كالمساواة بين الرجال والنساء في جمهورية أفلاطون على سبيل المثال، بينما أصبحت تلك الأفكار بديهيةً في عصرنا الحالي، وهو ما جعل اليوتوبيا كتابات صالحة للمشاركة في تشكيل مجتمعات وتقديم حلول للمشكلات التي قد تظهر في أي زمان وأي مجتمع، بعكس المشروعات السياسية الواقعية التي تقدم حلولاً لمشكلات خضعت لإطارها الزمني وتجاوزها الزمن بمرور الوقت.

تمكنت اليوتوبيا من المزج بين الأمل في التغيير والرغبة في التغيير وحطمت اليأس؛ بأن بعثت رسالةً بأن ما نأمُلُ في الوصول إليه حقاً على مستوى الدولة والمجتمع يمكننا تحقيقه في أرض الواقع إذا ما توافرت الرغبة لذلك (HERTZLER, 1922: 303)، تلك الرغبة التي دفعت كُتَّاب المدينة الفاضلة إلى أخذ روح المبادرة عن طريق تبيين التفاصيل الدقيقة لطرائق جديدة ومبتكرة في إدارة الدولة والمجتمع بطريقة مُثلى.

وعلى العكس من كثير من الكتابات السياسية والفلسفية الكُبرى، تمكنت اليوتوبيا من التسلل إلى رجل المجتمع العادي بأحلام ثورية ضخمة عبر صياغتها مشروعات سياسية وفلسفية معقدة في شكل قصة وتفاصيل يومية، جعلت القارئ ليس فقط مُتلقياً لتلك النظريات، وإنما وضعته في سياق الأحداث ليقارن بين المجتمع الذي يعيشه والمجتمع الذي يأمُل العيش فيه، وأشركته في ملء الفراغات بين الواقع والخيال من وحي خياله الخاص، ودفعته لتكوين وجهة نظره الخاصة بشأن قضايا الدولة والمجتمع، وهو ما جعل اليوتوبيا ذات جاذبية وانتشار على عكس كثير من الكتابات السياسية الأخرى (YORKE, 2004: 10).

2- عالم خالٍ من اليوتوبيا

وقد تظهر أهمية اليوتوبيا بشكل معكوس إذا ما طرحنا تساؤلاً عما قد يحدُث للعالم إذا ما اختفت الكتابات المثالية التي تبحث عن المجتمع الفاضل؟، فبينما تواجه اليوتوبيا بكثير من الانتقادات عن عدم

الجدوى والاستغراق في المثالية وعدم القدرة على التأثير في الواقع، فإن عالماً خالياً من اليوتوبيا قد يُواجَه بكثير من المشكلات الفجة، فكلما اختفت اليوتوبيا "كف التاريخ عن كونه عمليةً تقود إلى غاية نهائية" (مانهايم، 1980، 307)، ومع نبذ اليوتوبيا "سيفقد الإنسان إرادته في تشكيل التاريخ ومعها قدرته على فهمه" (ريكور، 2002: 378).

وكثير من الدراسات التي تناولت ظاهرة اليوتوبيا قد عبَّرت بالفعل عما لحق بعالمنا المعاصر من غياب اليوتوبيا، فعصرنا أصبح "عصر التسويات والحلول الوسطى، والسعي لجعل العالم أقل شروراً" (برنيري، 1997: 15)، فالقدرة على الحلم والرغبة في التغيير نحو الأفضل لم تعد هي الفكرة السائدة، وإنما التشاؤمية بشأن تدهور الإنسانية وخروج التكنولوجيا عن السيطرة وتغول سلطة الدولة وانتهاء العالم أصبحت هي السمة الغالبة لعصرنا الراهن، فقد استحالت الأحلام لكوابيس مُقلقة والأمل إلى يأس والتفاؤل إلى تشاؤم.

ولم تعُد اليوتوبيا في العصر الراهن متساميةً على التاريخ حيث أصبحت "تنزل بالتدريج نحو الحياة الواقعية وتزداد اقتراباً منها، وفي أثناء اقترابها من الحقيقة التاريخية يخضع شكلها لكثير من التغييرات في الوظيفة والمضمون" (مانهايم، 1980: 296)، حيث تنطبع اليوتوبيا اليوم – أكثر من أي وقت مضى عبر مراحل تطورها التاريخية – بالخيالية المفرطة وعدم الجدوى، وذلك بعد أن استغرقت في أحلام وآمال متعالية على واقع مليء باليأس والإخفاقات، ويمكن القول إن تراجع اليوتوبيا وانزوائها أفسح المجال نحو صعود الديستوبيا كتوجه فكري وفلسفي سائد أكثر من أي وقت مضى، فكل غياب لليوتوبيا يعبر عن يأس من المستقبل يتم ترجمته في انتشار واسع لكتابات الديستوبيا (مانهايم، 1980: 297).

من ناحية أخرى تسيطر على الفكر السياسي والفلسفي العالمي في العصر الراهن فكرة مفادها أن الحضارة الإنسانية – الغربية بالتحديد – قد وصلت أعلى درجات الكمال، بشكل جعل من اليوتوبيا أمر غير ذي محل لديها، بل تسود لديها الكتابات الديستوبية تعبيراً عن فكرة اضمحلال الحضارات بعد صعودها إلى قمة التطور.

وقد عبر مانهايم عن تلك الفكرة حين أكد أن غياب اليوتوبيا سيؤدي إلى سيادة النزعة الواقعية التي تعني في النهاية تراجع الإرادة الإنسانية التي تُمثلها اليوتوبيا، مما ينتج عنه خلق وضع يسوده الجمود ويُصبح الإنسان فيه مجرد شيء أو مخلوق عشوائي لا يفكر في المستقبل أو يأمُل في تحقيق تقدُم في مسيرته، وبذلك ستحدُث مفارقة تاريخية كُبرى بعد أن يتحول الإنسان الذي كان طوال العصور السابقة كائناً مسيطراً على الكون وحركة التاريخ، إلى مفعول به بلا مُثل عليا أو تطلعات أو أحلام، وفي اللحظة

تلك التي يتخلى الإنسان عن اليوتوبيا فإنه – في الوقت عينه – يتخلى عن إرادته في صُنع التاريخ ومن ثم يُضيّع معها قدرته على فهم ذلك التاريخ (مانهايم، 1980: 308).

وكما أشار لويس مامفورد فإن اليوتوبيا بخلقها عالم موازٍ لعالمنا قد جعلت من عالمنا أكثر احتمالاً (MUMFORD, 1928: 23)، وبالتالي فإن غياب هذا العالم اليوتوبي الموازي قد يؤدي إلى تلاشي الأمل في المستقبل، وغياب إرادة التغيير وانتفاء انتقاد الوضع القائم وهي من أهم وظائف اليوتوبيا على الإطلاق.

من ناحية أخرى يعيش المجتمع حالةً خطرةً بغياب البديل لما يلاقيه من مشكلات، فاليوتوبيا لا تقدم بديلاً فحسب بل إن اليوتوبيا تقدم البديل الأكمل والأكثر تفصيلاً عن المجتمع القائم (MARTELL, 2018: 3)، فخطة اليوتوبيا لإدارة الدولة والمجتمع تمثل إبداعاً محكماً في هذا المضمار، واختفاؤها يعني العيش في مجتمع خالٍ من البدائل الممكنة، وبالتالي لا يتمكن من إنجاز تطورات هامة في مسيرته نحو الأفضل بل على الأرجح يتدهور باستمرار.

المحور الثاني

وظائف اليوتوبيا

إن دراسة وظائف الأفكار قد ينتج عنها خلطاً بين الأغراض والتأثيرات، فقد تتمكن اليوتوبيا من القيام بوظائف وتأثيرات هامة دون أن يكون لها غرض حقيقي في أداء تلك الوظائف والتأثيرات، فعلى سبيل المثال لم تكن يوتوبيا توماس مور ذات أغراض خاصة بالتحقق والتأثير الاجتماعي حين كتابتها، لكنها تمكنت من أداء وظائف هامة في التأسيس لذلك النوع من الكتابة اليوتوبية الأدبية، وبذلك تمكنت من تحقيق تأثير غير مباشر في الفكر والسياسة (MUMFORD: 1928: 27).

وقد اختلف الباحثون حول الوظائف التي قد تؤديها اليوتوبيا في الفكر والحركة، فلويس مامفورد على سبيل المثال يرى أن اليوتوبيا تؤدي وظيفتين هامتين: (MUMFORD: 1928: 28).

الأولى هي أنها تقدم بديلاً للعالم الحقيقي، حيث تصبح ملاذا آمناً حين يواجَه المرء بحقائق صعبة يعجز عن التعامُل معها لشدة صعوبتها وتعقيدها، في تلك الوظيفة تقدم اليوتوبيا المهرب للتخلص من الضغوط والإخفاقات، وهي في تلك الوظيفة تحديداً تكون غير ذات غرض بإحداث أي تغيير حقيقي لا في الفكر ولا في الواقع.

أما الوظيفة الثانية لليوتوبيا لدى مامفورد فهي جمع تفاصيل الحياة اليومية وتبويبها وإعادة تجميعها وترتيبها بشكل إبداعي بهدف خلق واقع جديد ذا تخطيط مبتكر يصبح في مواجهة الواقع الحالي، وتلك الوظيفة تكون ذات غرض هام ألا وهو تقديم تصور واقعي وتفصيلي يمكن استخدامه في تحسين حياة البشر وتسعى لتغيير الواقع لا الهروب منه.

لكن اليوتوبيا لدى جودوين (GOODWIN, 2001: 13) ذات ثلاث وظائف رئيسية: التعويض والنقد والتغيير، فهي تصبح مهرباً من الواقع المرفوض لكنه مهرب شخصي مقتصر على كاتب اليوتوبيا نفسه الذي لا يسعى لتغيير العالم بأسره، رغم ذلك فهي ذات طابع نقدي لأنها تُعبر بالأساس عن عدم رضاء عن الواقع الحالي، وهو ما يقود إلى الوظيفة الثالثة لليوتوبيا وأهم وظائفها على الإطلاق وهي وظيفة تحفيز التغيير عن طريق تقديم إلهام يطمح لتغيير العالم عبر تجسيد الأمل وليس فقط مجرد رغبة في التغيير.

ويرى بول ريكور أن لليوتوبيا وظيفة رئيسية هامة تتمثل في "تنمية منظورات جديدة وبديلة، حيث المخيلة نفسها – وعبر وظيفتها اليوتوبية – تمتلك دوراً تكوينياً في مساعدتنا على إعادة النظر في طبيعة حياتنا الاجتماعية"، لذا فإن اليوتوبيا باعتبارها قفزة إلى خارج المألوف قد مكنتنا من أن نُعيد النظر من خلالها في تعريفات كثير من المفاهيم المحورية لعلم السياسة والاجتماع، كتعريف السُلطة والعائلة والدين بشكل ثوري وغير مسبوق (ريكور، 2002: 66).

كذلك فإن التجسيد يُعد أحد وظائف اليوتوبيا الأهم والأكثر وضوحاً على الإطلاق، فاليوتوبيا لا تختبر مبادئها في فراغ لكنها تبني تجسيد واستنساخ للمجتمع الواقعي ومؤسساته وأفراده وقادته عبر خيال خصب يبحث تطبيق المبادئ التي تبتغيها اليوتوبيا وترتأيها باعتبارها السبيل نحو المجتمع الفاضل والدولة الفاضلة (GOODWIN, 2001:14) ، وتعمل اليوتوبيا عبر وظيفتها التجسيدية هذه على بحث مدى قابلية تلك المبادئ على الحياة في ذلك المجتمع الفاضل، وذلك بمتابعة تطبيق تلك المبادئ في الحياة اليومية التفصيلية، وهي وظيفة تنأى باليوتوبيا عن الانتقادات الداعية بعدم جدوى تطبيقها في الواقع.

واستخلاصاً من تلك الدراسات يمكن حصر وظائف اليوتوبيا في ثلاث وظائف رئيسية، هي كالآتي:

1- الوظيفة الأولى: الهروبية / التعويضية

إن الوظيفة الأولى التي تُمارسها اليوتوبيا هي الهروب من أرض الواقع، فلطالما "عاش البشر فيما بين عالمين عالم الواقع وعالم الأحلام" (MUMFORD: 1928: 26)، فاليوتوبيا تستهدف التشكيك في الواقع الحالي مما يجعله يبدو غريباً عنا، فصحيح أننا نميل في العادة إلى التسليم بالأمر الواقع الذي نعيشه الآن، لكن اليوتوبيا تثير لدينا الإحساس بالشك الذي يدمر ما هو واضح ومألوف، فهي بمثابة الاختزال الذي يقوم بتعطيل افتراضات وقوانين الواقع (ريكور، 2002: 397).

فاليوتوبيا كحلم تمثل "خيالاً جامحاً، يتعذر تحققه البتة، والخيال الجامح يتاخم الجنون، إنه نزعة هروبية يقوم نموذجها على الفرار " (ريكور، 2002: 410)، ذلك الفرار الذي يجعل العالم بكل رفضنا له أكثر احتمالاً.

ذلك الخيال الجامح يصبح جذاباً بفضل هروبيته، ليس فقط من الواقع ومن حدود الزمان والمكان ولكن لخلوه من المنهجية والسببية والمنطق، تلك الهروبية التي تجعل اليوتوبيا الملجأ الأكثر أمناً وأريحيةً لكثير من المفكرين، ذلك الملجأ الذي مكَّن كبار الكُتاب عبر التاريخ من تفجير قدراتهم الإبداعية على تجاوز مشكلات الواقع، وتقديم أفكار جذرية وثورية للوصول بالإنسان إلى الكمال الفاضل.

كذلك مكنت اليوتوبيا كثيراً من المفكرين عبر العصور من التعبير عن أفكار سياسية جامحة وجريئة بشكل هروبي يفلتهم من الدخول في مواجهة مباشرة مع السلطة القائمة، ومن ثم التعرض لبطشها، فهي طريقة للمعارضة السياسية الهروبية التي تسعى للإفلات من المسئولية بأن تحلُم حُلماً غير مأمول التحقق، ولا يدعو بشكل مباشر لأي دعاوى سياسية بالثورة أو الخروج على السلطة.

وتصبح الهروبية اليوتوبية أكثر جاذبية حين يتعلق الأمر بظروف تاريخية يسودها هزائم أو تحولات كاسحة (MUMFORD: 1928: 23)، حيث مثلت جمهورية أفلاطون على سبيل المثال في قسم منها يوتوبيا هروبية من هزيمة أثينا على يد أسبرطة، بينما مثلت يوتوبيا توماس مور هروبية من أوضاع اجتماعية شديدة التحول عبرت عن نفسها في بريطانيا خلال فترة تاريخية متعسرة، شهدت التحول من العصور الوسطى إلى عصر النهضة بكل ما في ذلك التحول من صراعات اجتماعية وسياسية ضخمة، أما يوتوبيات القرن الثامن عشر التي غلبت عليها السِمة الشيوعية كانت هروبية بأحد المعاني للتخلص من ضغوط توحُش الرأسمالية على الطبقة العاملة، وتأثيرها السلبي في المجتمع وغياب المساواة في توزيع الثروة.

2- **الوظيفة الثانية: البنائية / التكوينية**

ولكي تصبح اليوتوبيا أكثر إقناعاً للقارئ وأكثر إيضاحاً لمدى نجاعة مبادئها وأفكارها، فإن ذلك يحتم على كاتب اليوتوبيا أن يقدم مجتمعاً متكاملاً على قدر كبير من التفصيل لدقائق الحياة اليومية (GOODWIN, 2001:15)، لذلك كانت "القدرة الدائمة على وضع قدر كبير من الأفكار الجديدة في صور فائقة التفصيل تمثل إحدى أحاجي اليوتوبيات" (ريكور، 2002: 401)، فالتفصيل الذي تحتويه كتابات المُدن الفاضلة هي السمة الرئيسية التي تميزها عن كونها مجرد أحلام بسيطة عن حياة أفضل، وهي كذلك السِمة التي تدفع اليوتوبيا باتجاه وظيفتها في التغيير.

وتستهدف اليوتوبيا بالأساس أن تخبرنا عن مكامن الخطأ والمشكلات في المجتمع الذي نعايشه، ليس عبر تقديم سُبُل للإصلاح وإنما عبر تقديم مجتمع جديد بالكامل يتلافى تكرار أخطاء الواقع الحالي (MOYLAN, 2006: 4)، فبدون "أن يعي الناس ما المجتمع الذي يرغبون في العيش به، لن يمكنهم إقرار خيارات بشأن مستقبلهم الجمعي"(YORKE, 2004: 6).

وبذلك فإن اليوتوبيا عبر وظيفة التغيير لا تقدم لنا حلولاً، ولكن صورة كاملة لمجتمع متخيل فاضل يتم استنساخه من المجتمع الحالي، ولكن مع تعظيم الفضائل والمبادئ التي تُسهم في جعله في أكمل صورة، لذا فالوظيفة التكوينية لليوتوبيا تتم عبر تشييد مجتمع جديد لم يسبق له مثيل يقدم فرصاً واحتمالات جديدةً لا يقدمها مجتمع الواقع (GOODWIN, 2001: 15).

وعبر الوظيفة البنائية هذه تظهر إرادة التغيير، فهي أداة للتوعية بما يمكن أن يحصل عليه الناس من خيرات وفضائل عبر القفز على مجتمع الواقع والسعي نحو مجتمع فاضل منشود، تلك الأداة التوعوية تدفع نحو تضامُن وتعاون مجتمعي، ليس فقط بشأن الآمال والرغبات السياسية لأفراد ذلك المجتمع، ولكن يتعدى ذلك التضامن والتعاون حيز الاتفاق الفكري عن الشكل الأمثل المرغوب إلى إرادة في التغيير عبر سُبل سلمية حيناً وسبلاً ثورية أحياناً أخرى، ومن خلال محاولة تطبيق كلية أو جزئية جماعية أو فردية لتلك المبادئ والفضائل المرسومة بداخل المدينة الفاضلة (FERNANDO ET AL., 2018: 779).

3- **الوظيفة الثالثة: النقد / التغيير**

اليوتوبيا إما أن تكون بديلاً عن الواقع أو تدميراً للواقع، فهي إما أن تقوم بوظيفتها الهروبية حين تكون لا أمل لها في التحقق، أو تُستخدم كأداة نقدية للثورة على ذلك الواقع وتغييره بشكل جزئي أو كلي

(ريكور، 2002: 409)، فنقد الواقع الذي تُمارسه اليوتوبيا على وجه التفصيل هو الوظيفة الأكثر تميزاً لعلم الاجتماع بشكل عام (WELLS, 1906: 3).

لذا فالتغيير في اليوتوبيا هو الوجه الآخر للنقد، فانتقاد المجتمع الواقعي يتم عبر تقديم مجتمع بديل بالكامل يتجاوز مثالبه، ذلك المجتمع الفاضل المُتخيل بأدق تفاصيله اليومية، يثور على الأوضاع البديهية والمسلمات الواقعية، ويدفع باتجاه التساؤل عن قضايا كُبرى تظهر في الواقع وكأنها فوق النقد وخارج نطاق التشكُك (GOODWIN, 2001:16)، هذه الطريقة اليوتوبية في التفكير تدفع باتجاه تغيير مزدوج، على مستوى الفكر عبر بالتشكك في مسلمات الأمر الواقع وإعادة تقييمها من حيث الفضيلة والجدوى، وعلى مستوى الواقع من ناحية أخرى عبر خلق إرادة تغيير لدى قطاع من المجتمع للثورة على الأوضاع القائمة وتجاوزها.

وتتمكن اليوتوبيا من الإفلات من الخيالية الحالمة عبر حقيقة هامة مفادها بأن اليوتوبيا بخلاف الحلم يمكنها التغيير إذا ما انجذب إليها عدد كافٍ من الناس، وامتلكوا الإرادة في تطبيق تلك اليوتوبيا في أرض الواقع (GOODWIN, 2001:14)، وهو ما نجحت اليوتوبيا في تحقيقه بالفعل عبر المجتمعات المقصودة "الكوميونات" (سارجنت، 2016: 39) أو "الكيبوتسات" اليهودية في الأراضي الفلسطينية، فالمجتمعات المقصودة شكلت في مناطق مختلفة من العالم الوجه الآخر لليوتوبيا، حين يتم تنزيلها لأرض الواقع في محاولة لتطبيق أفكار اليوتوبيا في نطاق جغرافي محدود، لذا فاليوتوبيا ذات وظيفة كامنة للتغيير، تظهر إذا ما توافرت الإرادة الكافية لإحداث ذلك التغيير في مجتمع ما، وهي تمارس التغيير بشكل رئيسي عبر رفض الواقع ونقده.

المحور الثالث

تطور اليوتوبيا عبر عصور التاريخ

شهد التاريخ ازدهار اليوتوبيا في عصور مختلفة، فهي قد تزدهر في عصور اليأس والهزيمة بحثاً عن عالم أفضل يتخلص فيه البشر من شرور العالم الراهن، بينما قد تزدهر أيضاً في عصور النهضة والتنمية والاكتشافات العلمية الكبرى، منبئةً عن آمالٍ عريضة معقودة على المستقبل وما يحمله من خير ورخاء للبشر، وهي في هذه الحالة تنبىء عن ثقة في سير الإنسان في اتجاه تقدمي ومطرد نحو

الطريق الصحيح، بينما قد تنبئ الديستوبيا – على العكس – عن تشاؤم وريبة في الطريق الراهن للسير، وتتوقع مآلات كارثية لإنجازات قد تبدو في العصر الحالي خيرةً ونافعةً.

وينعكس الخلاف بشأن ماهية اليوتوبيا في الدراسات التي تصدت لتأريخ تطور اليوتوبيا عبر العصور، فكارل مانهايم على سبيل المثال ارتأى اليوتوبيا أداةً للتغيير الجذري في يد الفئة الاكثر تضرراً من الوضع القائم، وخالف معظم دارسي تاريخ اليوتوبيا في الأخذ بيوتوبيا مور على سبيل المثال، والتي تُمثل – لدى أغلب دارسي تاريخ اليوتوبيا – مرحلةً تاريخيةً هامةً في تطور اليوتوبيا، بل على العكس من ذلك فقد رفض مانهايم المنهج التاريخي برمته للوقوف على ماهية تطور اليوتوبيا، واستخلص منهجاً سوسيولوجياً يبحث عن الطبقات الاجتماعية التي تبنت اليوتوبيا في مراحل تاريخية متنوعة، وحاولت استخدامها لتغيير الوضع القائم، وقد اختار بذلك تأريخاً لليوتوبيا يتجاوز الفهرسة لمجموعة يوتوبيات متراكمة تتلاحق زمنياً، واختار بديلاً عن أغلب اليوتوبيات الشائعة يوتوبيات مختلفة مثل يوتوبيا العقيدة الألفية، اليوتوبيا الليبرالية، اليوتوبيا المحافظة، وأخيراً اليوتوبيا الاشتراكية الشيوعية (مانهايم، 1980: 287).

وعلى خلاف مانهايم فإن أغلب الدراسات التي تناولت تأريخ تطور اليوتوبيا قد صنفت المشروعات اليوتوبية طبقاً للمراحل التاريخية الكبرى، مثل يوتوبيا العصور القديمة كجمهورية أفلاطون ومدينة الشمس لكامبانيلا، ويوتوبيا العصور الوسطى كمدينة الله للقديس أوغسطين، ويوتوبيا عصر النهضة مثل يوتوبيا توماس مور وأتلانتس الجديدة لفرانسيس بيكون، ويوتوبيا العصر القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ذات الطابع الاشتراكي ويوتوبيا العصر الحديث.

وبعض الكتابات التي تبنت مفهوماً أكثر اتساعاً لليوتوبيا قد ضمنت في مشروعات اليوتوبيا عبر العصور يوتوبيا المسيح على سبيل المثال، واعتبرت رسالة الأنبياء هي يوتوبيا في ذاتها تستهدف خلق مجتمع أفضل (HERTZLER, 1922: 85).

وبالنظر إلى الأغلبية الكاسحة من تلك الدراسات التي استهدفت التأريخ لظاهرة اليوتوبيا ومشروعات المدن الفاضلة عبر العصور، نجدها صنفت التأريخ الزمني لتلك الكتابات تأريخاً غربياً بالأساس، وضمَّنت الكتابات اليوتوبية الغربية بشكل حصري مع غض الطرف عن أي كتابات عن الشكل الأمثل للدولة والمجتمع من خارج الخلفية الحضارية الغربية.

لذلك تُقسِّم الدراسة تطور تاريخ اليوتوبيا قسمين رئيسيين: يتناول القسم الأول متابعة تطور اليوتوبيا غربياً عبر التصنيفات الكلاسيكية التي تبنتها أغلب دراسات تأريخ اليوتوبيا، ثم في القسم الثاني تتناول الدراسة تأريخ غير غربي لتطور اليوتوبيا عبر حضارات مختلفة.

ولكن قبل استعراض تطور اليوتوبيا، يجدر بنا التساؤل عن السبب الذي قد يكمن خلف إغفال معظم الدراسات لدراسة ظاهرة اليوتوبيا لدى الحضارات غير الغربية، وغياب الاهتمام البحثي بتسليط الضوء على الاجتهادات غير الغربية لتصور شكل الدولة الفُضلى.

يسود اعتقاد شائع بين دارسي اليوتوبيا بأنها ظاهرة غربية بالأساس خاصةً وأن من سك مصطلح يوتوبيا هو المفكر الإنجليزي توماس مور ، وأن لفظة يوتوبيا كلمة يونانية بالأساس، فيشير كريشان كومر على سبيل المثال بشكل واضح إلى أن "اليوتوبيا الغربية بشكلها التقليدي لا يوجد لها مثيل في أي من الحضارات غير المسيحية وغير الغربية" (KUMAR, 1987: 117).

ويتجلى ذلك الاعتقاد في الاهتمام الحصري للدراسات التي أرخت لليوتوبيا بتلك الأحلام الغربية بالأساس، فأغلب تلك الدراسات استخدمت تأريخاً غربياً، بدءاً من الحضارة اليونانية ثم العصور الوسطى ثم عصر النهضة والعصور الحديثة، وتتبعت مشروعات يوتوبية غربية خاضعة لتطور تاريخي غربي مع إغفال كامل لما عداها من محطات تاريخية سابقة أو لاحقة تابعة لحضارات أخرى غير غربية. [1]

وقد دحض عدد من الباحثين دعاوى غربية اليوتوبيا، عبر تقديم دراسات متنوعة لمشروعات يوتوبية لا تختلف كثيراً عن تلك التي قدمها مور في "يوتوبيا" لدى حضارات غير غربية وغير مسيحية، مما يثبت أن الأحلام بعالم أفضل لا تقتصر على الغرب بمفرده، صحيح أن يوتوبيا مور قد انفردت بطريقة معينة في سرد الخيال السياسي عبر الأدب، وباستخدام أسلوب تخيل جزيرة منعزلة لا وجود لها، إلا أن الحضارات غير الغربية تمكنت من تقديم إبداعات هامة بشأن تخيل الشكل الأمثل للمدينة الفاضلة بجانب كبير من التفصيل، سواء بشكل نظري عن أهم جوانب المدينة الفاضلة على غرار جمهورية

(1) كانت الحضارات الشرقية القديمة كالهندية والصينية والبوذية سابقة على الحضارة اليونانية وكثير من الدراسات الفلسفية الحديثة أرجعت الفضل لتلك الحضارات فيما توصلت إليه الحضارة اليونانية من أفكار فلسفية، كذلك فإن الحضارة الإسلامية التي بلغت اوج ازدهارها خلال العصور الوسطى الأوروبية تمكنت من تقديم إسهام حضاري ضخم استفادت منه الحضارة الغربية قبيل عصر نهضتها، لذا فإن تلك الحضارات غير الغربية تحتاج إلى دراسة مفصلة بشأن إسهاماتها اليوتوبية لإمكان تسكينها في خريطة تاريخ تطور الفكر اليوتوبي إذا ما أردنا تقديم تصور عام وحقيقي عن تطور الفكر اليوتوبي عبر مراحل تاريخ الإنسانية بأسرها وليس تاريخ الحضارة الغربية فقط.

أفلاطون، أو بشكل أدبي عن قصة مدينة فاضلة وجدت في الماضي أو المستقبل ولها مواصفات تفصيلية على غرار "يوتوبيا" مور (سارجنت، 2016: 86).

ويمكن إرجاع ذلك الاهتمام الغربي الخالص لأغلب دراسات التأريخ لتطور اليوتوبيا بعدد من التفسيرات، يأتي أولها فيما يشهده عالم الثقافة والفكر من الهيمنة الغربية التي تجعل الغرب مركزاً للعالم، وبالتالي تحصر تاريخ العالم في التاريخ الغربي، كذلك يغيب الاهتمام البحثي الحقيقي من جانب كثير من الباحثين من الخلفيات الثقافية غير الغربية في التأريخ والتنظير للتراث الثقافي والحضاري لتلك الحضارات التي يمثلونها، واحتفاؤهم بشكل مبالغ فيه بالحضارة الغربية على حساب هويتهم الخاصة، ثم يأتي غياب المعلومات الكافية حول تراث الحضارات غير الغربية وضياعه أو صعوبة الوصول إليه ليلعب دوراً في انزواء كثير من الباحثين عن الانكباب على دراسة ذلك التراث، لمصلحة دراسات تهتم بمفاهيم وموضوعات ذات خلفية غربية أو حديثة تتسم بوفرة المعلومات بشأنها.

لذلك كله تعمل الدراسة على تقديم تأريخ متوازن لتطور اليوتوبيا، يسلط الضوء على تطورها الغربي المسيحي ولا يغفل تطوراتها وتجلياتها في حضارات أخرى غير غربية، في محاولة لاستعراض مركزية ومحورية الحلم الاجتماعي والمثالية التي لعبت دوراً هاماً في تاريخ الإنسانية بأسرها، ومثلت ركناً حصيناً لتطور الممارسة السياسية والاجتماعية عبر العصور.

أولاً: تطور اليوتوبيا عبر عصور الحضارة الغربية

تتمثل العصور الرئيسية التي مرت بها اليوتوبيا في الحضارة الغربية عبر تطورها إلى خمس مراحل رئيسة اتفقت بشأنها أغلب الدراسات التي تصدت لتأريخ تطور اليوتوبيا، وتلك المراحل الخمس تتمثل في: يوتوبيات العصور القديمة، يوتوبيات العصور الوسطى المسيحية، يوتوبيات عصر النهضة، يوتوبيات القرن الثامن عشر والتاسع عشر، ويوتوبيات العصر الحديث، فيما يلي بيان بتفصيل سمات اليوتوبيا في كل مرحلة وعوامل نشأتها وتطورها:

1- المدينة الفاضلة في العصور القديمة

فيما بين القرنين السادس والثالث قبل الميلاد كانت سواحل إيطاليا وصقلية وبحر إيجة والبحر الأسود على موعد مع تأسيس مُدن جديدة، حملت مع تأسيسها أحلاماً بتشييد مجتمعات أفضل، بنفس القدر الذي حمل به العالم الجديد في الأمريكتين أحلام عصر النهضة بتشييد دول جديدة تتلافى أخطاء

الماضي، وشهدت تلك المدن ظهور أحلام الدولة الفاضلة في ذلك العصر المبكر، وهي ذات الفترة التي شهدت تأسيس المُدن اليونانية الأبرز كأثينا وأسبرطة والتي أطُلق عليها لفظ POLIS أو دولة المدينة (MUMFORD, 1928: 42).

اتسمت المدينة الدولة بعدة سمات هامة، فهي مدينة ذات نطاق جغرافي محدود، لكنها رغم ذلك ذات حكم ذاتي ومستقلة سياسياً، وبها عدد محدود من السكان وصل في المتوسط إلى ثلاثمائة ألف نسمة، مما جعلها تمتلك خصائص الدولة ذات السيادة بمعناها الحديث لتصبح مدينةً ودولةً في الوقت نفسه (مجاهد، 1999: 29).

وقد شهدت حضارة اليونان المبكرة يوتوبيات متنوعةً، فحَلَمَ "فالياس" بمدينة يتمتع مواطنوها بمساواة كاملة في الثروة، بينما حاول المهندس الإغريقي "هيبوداموس" المزج بين تنظيم المُدن هندسياً في شكل بيوت ومعابد وطرقات وبين التنظيم الاجتماعي لتلك المدن وساكنيها بشكل يحفظ النظام على الوجه الأمثل (MUMFORD, 1928: 43).

وتُعبر "جمهورية" أفلاطون عن العصر اليوناني باعتبارها اليوتوبيا الأشهر والأكثر تأثيراً في تاريخ المُدن الفاضلة من بعدها، وتعتبر كثير من الدراسات المهتمة بتاريخ تطور اليوتوبيا أن أفلاطون أهم من كتب عن نظام الحكم الأمثل من الفلاسفة القدماء، لكن الحضارة اليونانية زخرت بمشروعات فكرية كثيرة – قبل أفلاطون وبعده – تناولت الشكل الأمثل للدولة الفاضلة، مثل جمهورية زينون الفاضلة وسترابون وبلوتارك (برنيري، 1997: 26)، كذلك فقد قدم أفلاطون آرائه بشأن المدينة الفاضلة عبر عدة محاولات كانت "الجمهورية" أولاها، ثم أدخل بعض التعديلات في محاورة "القوانين" ومحاورة "رجل الدولة" ومحاورة "كريتياس" (برنيري، 1997: 27).

كذلك فقد قدم أرسطو تصوراً عاماً في مؤلفه الأشهر "السياسات" عن المدينة الفاضلة (أرسطوطاليس، 2016)، على الرغم من معارضته للفكر المثالي ونقده لجمهورية أفلاطون، فقد اتبع أرسطو نهجاً قائماً على صياغة رؤيته للدولة المُثلى من خلال استعراضه للدساتير في عصره، سواء كانت دساتيراً مُثلى كالذي صاغه أفلاطون لجمهوريته، أو دساتيراً حقيقةً كدستور مدينة أسبرطة أو الإمبراطورية الفارسية على سبيل المثال، وبذلك يكون أرسطو جمع بين اليوتوبيا والواقع، حيث رفض الفكر المثالي المتعالي على الواقع لدى أفلاطون، وقدم نقداً مطولاً لبعض الأفكار الثورية التي جاء بها أفلاطون كالمساواة بين الرجال والنساء والشيوعية باعتبارها أفكاراً منافيةً للطبيعة، وأرسطو في نقده لتلك

الأفكار اليوتوبية المتعالية على الواقع قد آمن بأن الدولة المُثلى يجب أن تتشكل على أسس ومبادئ واقعية مأخوذة من دساتير حقيقية، ولا تخرج عن المألوف في العصر الذي كُتبت فيه.

وقد اتسمت اليوتوبيات القديمة بأنها يوتوبيا نظرية، ارتبطت بالفلسفة أكثر مما ارتبطت بالتاريخ وعلم الاجتماع مثلما فعلت اليوتوبيا الحديثة، كذلك كانت اليوتوبيات الكلاسيكية محدودة النطاق الجغرافي، على العكس من اليوتوبيات الحديثة التي اتسم كثير منها بالعالمية، فكانت جمهورية أفلاطون ومدينة بلوتارك الفاضلة بحجم دولة المدينة، ورغم ظهور المدرسة الرواقية وزعيمها زينون الذي دعا للأخوة العالمية، فقد كانت استثناءاً لليوتوبيات الكلاسيكية التي اهتمت بتأسيس مدينة ذات حجم محدود جغرافياً؛ لإمكان السيطرة الصارمة عليها (برنيري، 1997: 28).

ويرى إرنست بلوخ بأن اليوتوبيات الكلاسيكية كانت حتى القرن الثامن عشر "يوتوبيات نظرية وكان المنهج الرياضي الاستنباطي هو المنهج المتبع فيها وليس المنهج التاريخي، ومعنى هذا أنها انحصرت في استنباطات من الفكر الخالص، كما اتضح من نظريات الحق الطبيعي التي افتقدت الحس الحقيقي بالتاريخ" (أبو السعد، 1997: 433).

لكن اليوتوبيات القديمة كانت ثوريةً، رغم ما بدا عليها من شمولية وتسلط وغياب مساواة حقيقية، فقد قدمت تلك اليوتوبيات آراءاً وتصورات للحُكم الفاضل كانت سابقةً على عصورها بشكل لافت، فنرى أفلاطون قد ناقش فكرة المشاعيّة في الملكية بين طبقة الحراس وإلغاء الملكية الخاصة بجميع أشكالها، والمساواة التامة بين النساء والرجال لا في الزواج وتربية الأبناء فقط ولكن في حراسة الدولة والذهاب للحرب (أفلاطون، 2017: 158).

على الجانب الآخر قدم أرسطو أفكاراً هامةً بشأن الملكية الفردية للثروة، ورفض أفكار أفلاطون عن المشاعية، وأكد أن إلغاء الملكية منافٍ للطبيعة البشرية ومهلك للدولة، وقدم أفكاراً جذابةً عن الطبقة الوسطى وأهميتها في نظام الحكم للدولة المُثلى (أرسطوطاليس، 2016: 184)، كما انتقد أرسطو فكرة تفضيل نوع ثابت من الحكومة الفُضلى التي قد تصلح لأي شعب، وهي فكرة مشابهة لما قدمه ج هـ ويلز في "يوتوبيا حديثة" بعد أرسطو بقرون عديدة، حيث انتقد ويلز اليوتوبيات القديمة كلها باعتبارها ثابتة جامدة تتصور الدولة الفاضلة كائناً لا يتحرك ولا ينمو (WELLS, 1908: 8).

وبينما مثَّل أفلاطون وجهة النظر التسلطية التي أطلقت يد الدولة على العامة، جاءت أفكار زينون والسفسطائيين لتُعلي من قيمة الحرية إلى حدها الأقصى، فقد آمن السفسطائيون بعصر ذهبي

عاش فيه البشر في حرية ومساواة تامة، وارتأوا في الدولة والتنظيمات السياسية السبب الرئيس في فقدان البشر لإحاسيس السعادة والحرية، كما رأى زينون أهمية التخلص من الدولة والتنظيمات السياسية في مجتمعه المثالي، وألغى الزواج والمعابد والمحاكم والمدارس والنقود (برنيري، 1997: 28).

2- المدينة الفاضلة في العصور المسيحية

ساد العصور الوسطى الأوروبية فكر لاهوتي ارتأى العالم الآخر باعتباره الجنة المفقودة والمدينة الفاضلة التي ينبغي السعي وراء الوصول إليها، وبذلك كانت اليوتوبيا المسيحية ذات مسحة صوفية فلسفية، حيث كان السعي للوصول للمدينة الفاضلة ليس بإصلاحات خارجية بالأساس، وإنما بإصلاح داخل النفس البشرية وتحليها بالأخلاق وابتعادها عن الشرور والمفاسد الدنيوية.

فقد تجلت رؤية القديس أوغسطين[2] للمدينة الفاضلة عبر مؤلفه "مدينة الله"، الذي قدم فيه فكرته عن المدينة الفاضلة التي تتجلى في مدينة الله، حيث رأى أوغسطين بأن سائر المجتمعات البشرية يمكن تصنيفها إلى مدينتين رئيسيتين إما المدينة الأرضية أو مدينة الشيطان، وإما المدينة السماوية أو مدينة الله، ويختار كل فرد الانتماء إلى إحدى المدينتين بكامل إرادته، بينما تسود حرب هائلة فيما بين المدينتين بشكل دائم، حيث تجاهد المدينة السماوية في سبيل العدالة بينما تعمل المدينة الأرضية على دعم الظلم، "ولن تزال هذه الحرب مستعرة إلى نهاية العالم، حتى يفصل بينهما المسيح في آخر الأزمان، فتنعم الواحدة بالسعادة الأبدية، وتلقى الأخرى جزاءها في النار التي لا تنطفئ" (أوغسطين، 2006: 213).

أما القديس توما الاكويني[3] فقد رأى أن السعادة الكاملة لا تتحقق للإنسان إلا في الحياة الآجلة وتتم برؤية الله، أما في الحياة الدنيا فالسعادات التي يتحصل عليها البشر ناقصة ولا تكتمل إلا بمعرفة الله أولاً ومزاولة الفضائل ثانياً والاهتمام بالخيرات الخارجية مثل المال والكرامة قدر الإمكان ثالثاً وتسخير تلك الخيرات للحياة الفاضلة (كرم، 2014: 145).

---

[2] القديس أوغسطين (354 م - 430 م): أحد رواد الفلسفة المسيحية في العصر المسيحي الوسيط الذي امتدّ من القرن الثاني حتّى القرن السادس الميلاديّين. إذ امتدّ أثر فكره إلى معظم الفلاسفة اللاهوتيين في العصر الوسيط مثل القدّيس توما الأكويني وأنسلم.. ومثلت فلسفته في جوهرها توفيقاً بين الإيمان والعقل أو الفلسفة واللاهوت. وهذا ما مكّن من انفتاح المسيحيّة على الفكر اليوناني في طابعه الأفلاطوني، (كرم، 2014: 48).

[3] القديس توما الاكويني (1225 م – 1274 م): أبرز فلاسفة العصر المسيحي الوسيط، تأثر بسابقه القديس أوغسطين وكرس فلسفته للتوفيق بين العقل والإيمان وتحرير الإرادة الإنسانية، يعد مؤلف "الخلاصة اللاهوتية" أهم وأضخم أعماله وتمكنت أفكاره من التأثير في الفلسفة الأوروبية الحديثة بشكل كبير، (كرم، 2014: 147).

وبتلك الرؤى مثلت اليوتوبيا ركناً رئيسياً في المعتقد المسيحي، وارتبطت لديه بالماضي الممثل في جنة عدن التي أُخرج منها الإنسان بسبب الخطيئة الأولى، والمستقبل اليوتوبي ممثلاً في النعيم أو الجحيم، وعودة المسيح ليحكم الأرض لمدة ألف عام، وبذلك أصبحت اليوتوبيا المسيحية وسيلةً لتجاوز الخطيئة الأولى ومحاولة العودة لجنة عدن مرةً أخرى، أو خلق رؤية يوتوبية لتلك الجنة ومحاولة الوصول لها مرةً أخرى (سارجنت، 2016: 89).

3- المدينة الفاضلة في عصر النهضة

شهد القرن السادس عشر ظهور نوع جديد من كتابات المدن الفاضلة، وهو النوع الأدبي الذي ابتكره توماس مور عبر روايته "يوتوبيا" عام 1516 (CLAEYS & SERGENT, 1999: 92)، وقد نشأ مور في عالم يسوده الإجلال والتقدير لما جاء به اليونانيون القدماء من حكمة فلسفية تمثلت في الرواقية والأبيقورية وأفلاطون وأرسطو، وسادت فيه رؤية هؤلاء لما يجب أن يكون عليه سلوك الرجل الفاضل، حيث اهتم الإنسانيون بتطبيق تلك الأفكار اليونانية الفلسفية الأخلاقية في الحياة والسلوك، لذا جاءت محاولة مور لرسم صورة أكثر تنقيحاً للشكل الأمثل للدولة عن تلك التي رسمها أفلاطون، وحاول تلافي مكامن الانتقادات التي وُجهت لجمهورية أفلاطون (MANUEL, & MANUEL, 1997: 119).

وقد شهد عصر النهضة تحولات هامةً جعلت فكر المُدن الفاضلة يشهد تغيرات بنيويةً في أسلوبه وموضوعاته ومبادئه، فقد كان متعذراً على مفكري عصر النهضة أن يقدموا تخيلاتهم الخاصة عن مجتمعات مثالية كاملة كتلك التي قدمها مفكرو اليونان، وذلك لأن تحولات جذريةً كانت قد طرأت على المجتمع الأوروبي، بحيث لم يعد يتفق مع دولة المدينة التي نشأ في ظلالها الفكر المثالي لأفلاطون وزينون وبلوتارك وأرسطو، فالمدينة "الأثينية أو الأسبرطية بتقسيمها الصارم للسُكان إلى مواطنين وعبيد واقتصادها البدائي المعتمد في أغلبه على الزراعة، لم يكن من الممكن أن تنتقل إلى مجتمع القرن السادس عشر من دون أن تخضع لبعض التغيرات الجذرية" (برنيري، 1997: 80).

بذلك أصبح المجتمع الأوروبي ذا قضايا جديدة ناشئة، لم تكن قد مثلت اهتماماً لدى كتابات المدينة الفاضلة من قبلها، ومنها على سبيل المثال قضية العمل اليدوي، فقد نظر أفلاطون للعمل اليدوي باعتباره خاص بالعبيد والصُناع والطبقات الدنيا، وعهد إلى الطبقات الأعلى بالحراسة والحُكم، بينما شهدت أوروبا مطلع القرن السادس عشر نمو العمل اليدوي وتوسعه وظهور النقابات الحرفية والمهنية، ليكتسب العمل وضعاً هاماً في المدينة (برنيري، 1997: 81).

لذا فقد شهد عصر النهضة تغيرات هامةً تركت آثارها في بنية الفكر اليوتوبي من حيث اهتماماته وقضاياه، ومن حيث طريقة عرض ذلك الفكر لرؤيته بشأن المجتمع الفاضل، حيث قام توماس مور بسك مصطلح يوتوبيا نفسه، كما أدخل تجديداً في التقاليد اليوتوبية بتناوله شكل المدينة الفاضلة بطريقة أدبية قصصية، تركت تأثيراً بارزاً في كل اجتهادات اليوتوبيا من بعده وحتى يومنا هذا، فقد حدثت نقلة نوعية وفجوة عميقة في التقاليد اليوتوبية فيما بين القرن السابع عشر وما قبله، حيث تحولت اليوتوبيا من مجرد تصورات نظرية عن مدينة فاضلة يجب بناؤها بشكل معين، إلى "أرض لا يسكنها أحد أو الرقعة التي قد يهرب إليها الشخص، حيث اتسمت اليوتوبيا في تلك الفترة باقترابها من نمط روبنسون كروزو وابتعادها عن نمط الجمهورية" (MUMFORD, 1928: 126).

4- المدينة الفاضلة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر

في القرن الثامن عشر حيث تفجرت الثورة الصناعية ولدت اليوتوبيا من جديد، ومن السهل معرفة لم كُتبت ثُلثا الكتابات اليوتوبية في القرن الثامن عشر تحديداً، ففي ذلك العصر قد صُنع العالم من جديد وأصبح من السهل تخيل المدينة الفاضلة من خلال عدد من معطيات هذا الواقع الجديد، من دون الحاجة للسفر إلى الجانب الآخر من الأرض، فقد "تحولت الملكية للجمهورية، ونشبت الثورة الصناعية، واكُتشفت قارتان كاملتان ووقعت تغيرات اجتماعية كاسحة" (MUMFORD, 1928: 128).

ونتيجة للثورة الصناعية فقد شهد القرن الثامن عشر ظهور المخترعات الصناعية ووفرتها، بشكل غير مسبوق عبر تاريخ البشرية منذ الآف السنين، هذه المخترعات مهدت الطريق نحو الخيال الخصب لما يمكن أن تفعله تلك الآلات الجديدة بحياة البشر، وما قد يعايشه الإنسان من راحة بعد أن تتولى الآلة العمل بديلاً عنه والرفاهية التي سيحظى بها، وهي كلها ظروف تهيأت من أجل ظهور يوتوبيا جديدة كُلياً عما سبقها في العهود الماضية (موسى، 2013: 33).

وبينما شهد العالم فترة تحول تاريخي عبر سلسلة من التغييرات الثورية التي خلخلت الفكرة الأوروبية الكلاسيكية بأن المستقبل سيشبه الماضي، شملت تلك التغيرات الثورية التصنيع والعلمنة والثورة الفرنسية والاكتشافات العلمية ونمو المجال العام الذي ساهم في زيادة الوعي بثقافة العالم الجديد ووسَّع انتشارها، كل تلك العوامل قد تجمعت لإنتاج فكرة الزمن الجديد حيث التاريخ يتحرك نحو الكمال الإنساني، تحت ضغط هذا التحول التاريخي تراجعت يوتوبيات بداية عهد النهضة التي أخذت حيزاً مكانياً مثل

يوتوبيا توماس مور وكامبانيلا وفرانسيس بيكون، لتُفسح المجال ليوتوبيا جديدة حيث المجتمع الفاضل ليس متخيلاً في جزيرة غير مكتشفة ولكنه في المستقبل (BLOCH, 1986: 554).

أما القرن التاسع عشر فكان عصر الإحباط وخيبة الأمل من الثورة الصناعية، وظهور صوت العمال المنسحقين بين فكي الثورة الصناعية وأحلامهم الواعدة بأراضٍ مشتركة وحياة أفضل، وهو ما سيُشكل ضغطاً على الفكر اليوتوبي ليجد تعويضاً فكرياً يحل مشكلات هذا الواقع الجديد، وقد تجلى ذلك الحل اليوتوبي بالأساس في الشيوعية (موسى، 2013: 59).

ففي تلك المرحلة التاريخية الديناميكية ظهرت اليوتوبيا الشيوعية "وأصبحت المادية التاريخية النظرية الأكثر تأثيراً، حيث ارتأت اليوتوبيا بأن تأسيس الشيوعية عبر كفاح الطبقة الكادحة الثائرة يمكِّن الإنسانية من خلق مجتمع متساوٍ وعادل وحر إلى حد كبير يتجاوز ما تتمتع به المجتمعات الرأسمالية" (BLOCH, 1986: 555).

لذلك فقد انتعشت اليوتوبيا في القرن الثامن عشر في خضم تغيرات واعدة، حملت معها تفاؤلات بشأن مستقبل أفضل وفرصة جديدة سانحة لتلافي أخطاء الماضي، وتأسيس حياة إنسانية سعيدة وفاضلة، بينما في القرن التاسع عشر أسهمت انتكاسة كل تلك الأحلام على يد الرأسمالية والاستغلال إلى إنعاش اليوتوبيا مرة أخرى، ولكن هذه المرة كانت صوت الطبقات الأدنى المتمسك بأحلامه حول مستقبل أفضل، ومساهمة في تشكيل مدينة فاضلة خالية من الاستغلال وإزالة ما لحق بالحضارة الإنسانية في القرن الثامن عشر من نهضة شابها ظُلم وغياب للبمساواة، وبذلك كانت اليوتوبيا استمراراً للأمل وهو ما لن تتمكن اليوتوبيا من تحقيقه في القرن العشرين، حيث سيتغلب اليأس بشكل أكبر على فكر البشر كما سنوضح فيما بعد.

ويرى إرنست بلوخ بأن الماركسية تمكنت في القرن التاسع عشر من تحويل النزعة الاشتراكية من مجرد يوتوبيا إلى علم، وهو عين التمييز الذي قدمه إنجلز فيما بين الاشتراكية اليوتوبية والاشتراكية العلمية، ففي الرؤية الماركسية تمثل اليوتوبيا مجرد حلم لتحسين العالم، بينما الاشتراكية الحقة هي التي سعت لتغيير هذا الواقع، كذلك فقد كرست يوتوبيا القرنين الثامن عشر والتاسع عشر جهودها في المجمل لوصف دولة المستقبل والتعالي على الواقع، بينما سعى ماركس لنقد الواقع، لذا فالماركسية لدى بلوخ "لم ترسم صورةً للجنة بل تناولت بالنقد والتحليل الحياة الاقتصادية وكشف سر الاستغلال والفساد والربح" (أبو السعد، 1997: 433).

لذا فقد واجهت اليوتوبيا مع ظهور الماركسية تحدياً جديداً، فبخلاف الانتقادات السائدة تجاهها في كل عصر بشأن مثاليتها وتعاليها على الواقع، فقد جاءت أفكار ماركس لتنظر لليوتوبيا باعتبارها خضوعاً للاستغلال وتسليماً للواقع، من خلال الهروب منه لعالم الخيال وعدم تقديم تحليل نقدي واقعي لتلك المشكلات، فقد ميَّز بلوخ وماركس وإنجلز ومفكري الماركسية بشكل عام بين الأمل في التغيير عبر اليوتوبيات الشيوعية في شكلها الكلاسيكي لدى أوين وفورييه وغيرهم، والرغبة في التغيير عبر الثورة الاشتراكية.

كذلك فقد تسببت الأيديولوجيا الماركسية في إثارة خلط هام فيما بين مفهومي الأيديولوجيا واليوتوبيا، نظراً لأن الماركسية مزجت الحلم بالواقع والحاضر بالمستقبل، وهو عين الخلط الذي ألهم كارل مانهايم لكتابة مؤلفه الأهم في دراسة الأيديولوجيا واليوتوبيا والتمييز بينهما، فرغم أن الماركسية جاءت معاديةً لليوتوبيا فإنها امتزجت بها وساهمت في إثرائها.

5- المدينة الفاضلة في العصر الحديث

كانت أحلام القرن التاسع عشر كله وما يليه من مطلع القرن العشرين، هي "كلها أحلام الآلات والعمال، وكلها تتجه بالطبع وجهة اشتراكية شأن جميع الأحلام الماضية، ولكنها تمتاز عنها بالعناية بالعمال وبجعل الآلات أساساً للهيئة الاجتماعية" (موسى، 2013: 59).

لكن القرن العشرين كان قد شهد أحداثاً مأسويةً جعلته وبحق "قرن الديستوبيا" (CLAEYS & SERGENT, 1999: 312)، ففي خلاله نشبت حربين عالميتين قتلتا ثلثي البشر، وفيه استُخدمت القوة النووية لأول مرة في التاريخ، وفيه نُظمت الحملات الاستعمارية التي قتلت آلاف البشر وقامت باستغلال أراضيهم، وظهر عدد من الديكتاتوريات الدموية حول العالم، كل تلك المآسي قد دفعت بالأمل نحو الهامش وجعلت اليأس هو الاتجاه السائد، وبالإضافة لذلك كان تطور التكنولوجيا المُتسارع يوشك أن يطيح بكل الآمال التي حلمت بتكنولوجيا تجعل الإنسان أكثر سعادةً فزادته دماراً وبؤساً، لتظهر ديستوبيا الخيال العلمي التي تتوقع خروج التكنولوجيا عن السيطرة، وتسببها في تعاسة البشرية خاصة التكنولوجيا المتعلقة بمجال الأسلحة.

ورغم كل تلك العقبات التي وقفت في طريق اليوتوبيا فقد تمكنت مشروعات يوتوبية شهيرة أن تجد لها مكاناً في قرن الديستوبيا وتحقق شهرةً ملموسةً، في مقدمتها يوتوبيا ج هـ ويلز التي ظهرت في

عدد كبير من كتاباته مثل "يوتوبيا حديثة"، "آلة الزمن"، "حروب العالم"، و"أول رجل على القمر" (CLAEYS & SERGENT, 1999: 327).

ففي الفترة ما بين الحربين العالميتين، وتحديداً بعد الكساد الكبير عام 1930 وتحت ضغط الخوف من نشوب الحرب العالمية الثانية، لجأ كثير من المفكرين إلى اليوتوبيا للبحث عن إمكانية إعادة تشكيل العالم، بعد أن أصبح في خضم ضياع عالمي وأزمة اقتصادية كبرى (WIDDICOMBE, 1992: 3).

وقد تمكَّن ويلز في مشروعاته اليوتوبية من أن يُحدث نقلةً في تقاليد الكتابة اليوتوبية وتخيل المدينة الفاضلة، فقد حاول تحديث الكتابة عن المُدن الفاضلة وقدم انتقادات كثيرةً لليوتوبيا في عصورها السابقة بسبب جمودها وهروبيتها وتعاليها المفرط عن أرض الواقع، وحاول إدخال تعديلات عصرية على حلم المدينة الفاضلة، يأخذ في الاعتبار ما آلت إليه الحضارة الحديثة من تغيرات بنيوية، وما يحلم به الإنسان المعاصر من طموحات تختلف جذرياً عن الطريقة التي تعاملت بها اليوتوبيا القديمة معه، لذلك فقد سمى ويلز مشروعه "يوتوبيا حديثة" لتمييزها عن سابقاتها من المشروعات اليوتوبية الكلاسيكية (MUMFORD, 1928: 198).

من هنا فقد تمكنت اليوتوبيا في القرن العشرين على يد ويلز من تجديد نفسها تحت ضغط مآسي الواقع وتعقيداته المتشابكة ومشكلاته غير المسبوقة في مجالات التكنولوجيا والحروب وصراع الحضارات والأفكار، وتحت ضغوط انتشار الديستوبيا نجحت اليوتوبيا في أن تمتلئ بالحيوية والحركة بدلاً من فكرة الحلم الفاضل المنغلق على ذاته، وبدلاً من دولة مدينة مثالية أو جزيرة معزولة فإنها أصبحت مدينةً فاضلةً عالميةً ومتنوعة الثقافات ويسودها الحرية ودائمة التغيُّر نحو الأفضل، وليست ثابتةً في مكانها أو ذات معالم شديدة التحديد والجمود (MUMFORD, 1928: 201)، بل في يوتوبيا حديثة "لا وجود لمجتمع كامل" (WELLS, 1908: 22).

وبخلاف مشروع ويلز اليوتوبي فإن الكتابة اليوتوبية بشكل عام تراجعت وأصبحت الاتجاهات الأدبية مضادةً لليوتوبيا، فلم يعد يُنظر لليوتوبيا "كحلم مثالي مستحيل، ولكن باعتبارها قد تحققت بالفعل أو في طريقها للتحقق، ولم تعد تنطق بالسعادة والكمال والتقدم لأن الحلم قد تحول في نظر الكثيرين إلى كابوس مروع" (برنيري، 1997: 379).

ثانياً: تطور اليوتوبيا في الحضارات غير الغربية

رغم الاعتقاد الشائع بغربية اليوتوبيا فإن بعض الدراسات الحديثة نسبياً حاولت كسر تلك السيطرة الغربية على تراث اليوتوبيا، ذلك أنه من غير المنطقي أن تدعي حضارة بعينها الاستئثار التام بشكل معين من الخيال الحالم بمجتمع فاضل ذي سمات معينة، كما أنه من غير الجائز ابتداءاً أن تُنتج ثقافات مختلفةً نفس النسخة من تصور مجتمع فاضل غير موجود (DUTTON & SARGENT, 2013: 2)، وبالتالي فالافتراض الذي قدمه كريشان كومر عن غياب اليوتوبيا كما أبدعها توماس مور عن الحضارات غير الغربية وغير المسيحية يعد افتراضاً غير صحيح علمياً (KUMAR, 1987: 117)، ورغم ذلك فإن محاولات دحض ذلك الافتراض لا تزال في طور التشكُّل والدراسة، ولا يزال حقل "الدراسات اليوتوبية المقارنة" استطلاعياً في جانب كبير منه.

فلم تبدأ دراسات جادة في البحث عن يوتوبيا غير غربية قبل الألفية الثالثة، وظهرت أولى تلك الدراسات على يد رالف بورديزك في مؤلفه "البحث عن يوتوبيا ما بعد كولونيالية"، والذي قدم فيه مقارنةً جديدةً في حقل اليوتوبيا فيما بين القصص الخيالية لعدد كبير من الدول مثل استراليا وكندا وجنوب أفريقيا وأيرلندا، حيث انتقد رالف في كتابه الكولونيالية باعتبارها "محاولة لتنميط الآخر بمفاهيمنا الخاصة، ولتقويض استقلاله وتفرده عن خبرات الآخرين في رؤيته للعالم"، لذا فقد سلط رالف الضوء على اليوتوبيا التي قدمتها عدد من الدول بعد التحرر من أسر الحضارة الغربية ووعيها الذاتي بتقاليدها اليوتوبية وصياغة أحلامها بمفاهيمها الخاصة، وتمكنت دراسة رالف الرائدة من لفت الأنظار لليوتوبيات غير الغربية (HASSAN, 2001:364).

وقد ساعد على دعم الاعتقاد الشائع بغربية اليوتوبيا عدد من العوامل، في مقدمتها شيوع تعريف اليوتوبيا تعريفاً ضيقاً يقصرها على ذلك النوع من الكتابة الأدبية التي تتخيل جزيرةً منعزلةً بشكل كبير من التفصيل، كما ورد في رواية توماس مور الذي سك مصطلح يوتوبيا واخترع ذلك النوع من الكتابة اليوتوبية، بينما بتطور دراسة اليوتوبيا عبر الزمن تمكَّن الباحثون من توسيع نطاق اليوتوبيا لتصبح ليس فقط نوعاً من الكتابة الأدبية، ولكن نموذج معرفي واسع المدى يندرج في إطاره عدد من الحقول المعرفية والتخصصات المتنوعة كالأدب والموسيقى والمعمار والسياسة والفلسفة وعلم الاجتماع وغيرها (DUTTON, 2010: 223).

وأصبحت دراسات اليوتوبيا تميل إلى توسيع دائرة المفهوم ليحتوي طيفاً واسعاً من المشروعات والكتابات الأدبية والنظرية والفلسفية التي تنتهج نهجاً مثالياً، ويغلب عليها الخيال السياسي في البحث عن عالم أفضل ومواصفات ذلك العالم، ذلك التوسع في دائرة المفهوم وتخفيف القيود النظرية الصارمة عنه جعل في الإمكان التوصل إلى عدد من التقاليد اليوتوبية التي تخيلت المجتمع الفاضل من خارج الحضارة الغربية (DUTTON, 2010: 223).

وتمكن عدد من الباحثين الذين عكفوا على دراسة اليوتوبيا في الحضارات غير الغربية من التُوصل إلى حضور اليوتوبيا في عدد كبير من الحضارات القديمة، كالحضارة الصينية البوذية والكونفوشيوسية والحضارة الهندية البوذية والهندوسية والحضارة الإسلامية في العصر الوسيط، وهي كلها حضارات سابقة على ظهور يوتوبيا مور، كذلك فإن كثيراً من اليوتوبيات التي أخذت عن مور الشكل الأدبي قد استخدمت الأسلوب دون التفاصيل وتمكنت من تقديم رؤيتها الخاصة بشأن العالم الأمثل، وبالتالي لا يمكن نسبة تلك المشروعات بالكامل إلى الثقافة الغربية، وتُمثِّل اليوتوبيا الأفريقية ما بعد الكولونيالية مثالاً هاماً على مشروعات يوتوبية تشبه يوتوبيا مور شكلياً لكنها تختلف جذرياً عما جاء به (سارجنت، 2016:70).

لذا فإن دراسة اليوتوبيا لدى الثقافات الأخرى غير الغربية يقدم نظرةً معرفيةً أوسع للمجتمع الفاضل في سائر أنحاء العالم وعبر عصور التاريخ المختلفة، فدراسة اليوتوبيا الغربية قد قدمت رؤيةً أحاديةً لما يجب أن يكون عليه المجتمع الفاضل من وجهة نظر واحدة، بينما تسليط الضوء على الحضارات الأخرى يوضح مدى اتساع الرؤية للمجتمع الفاضل واختلافها من حضارة لأخرى، ويقدم دليلاً شاملاً عما يتفق أو يختلف فيما بين الحضارات بشأن النظام الأمثل، ويعطي صورة أكثر كمالاً للمجتمع الفاضل (DUTTON & SARGENT, 2013: 2)، كما يسمح ذلك التنوع بإيضاح التقاليد اليوتوبية الخاصة بكل حضارة على حدة، فهيمنة التقاليد اليوتوبية الغربية على مفهوم اليوتوبيا قد استبعد لعقود مشروعات يوتوبية كثيرة حول العالم، بينما لا يجب توحيد التقاليد اليوتوبية وقصرها فقط على تلك التي ابتدعتها الحضارة الغربية، فكل حضارة لها تقاليد يوتوبية نابعة من ذاتها ولا يجدر تقييمها تبعاً لتقاليد حضارة أخرى.

فعلى سبيل المثال يتضح من الاطلاع على التقاليد اليوتوبية في ثقافات غير غربية مثل الحضارة الصينية والإسلامية والهندية، يتضح وجود تشابه كبير بين التوجهات اليوتوبية في سائر

الثقافات، فثمة شكلان شهيران لليوتوبيا يمكن إيجادهم في سائر الثقافات والحضارات وغير مقصورتين على الغرب وحده، يتمثل الشكل الأول في مجتمع نموذجي ساد في عصر ما في الماضي، يتم صياغة تصورات يوتوبية لكيفية العودة لذلك الوضع، ويحتوي الشكل الثاني على صورة من الجنة المفقودة التي يسعى البشر إلى الوصول إليها، وقد شاعت فكرة وجود حقبة يوتوبية في الماضي وكانت محوريةً في الاتجاه اليوتوبي بأغلب الثقافات (سارجنت، 2016: 71).

فاليوتوبيا عبر الثقافات المختلفة قد كونت أحلاماً متشابهة ومشتركة، فهي إما تحلم بعودة ماضي مليء بالأمجاد يمثل العصر الذهبي أو عصر الوفرة، أو تتطلع للأمام بحثاً عن تحقيق جنة عدن بشكل رمزي عبر الوصول لما يماثلها على الأرض (المدينة الفاضلة)، أو بشكل فعلي عبر تحقيق الفضائل والكمالات التي تسمح للفرد بالوصول إلى الجنة في الحياة الآخرة.

1- اليوتوبيا في الحضارة الصينية القديمة

انقسمت التقاليد اليوتوبية الصينية القديمة إلى مرحلتين رئيسيتين، تمثلت الأولى في اليوتوبيا الطاوية القديمة التي سيطر عليها فكر لا سلطوي يرفض الحكومات جميعها ويطلق عليها اسم "السلام العظيم" (سارجنت، 2016: 71)، وهي تمثل عصراً ذهبياً لم يحتج الناس فيه للدولة، وعاشوا في تناغم وسلام مع الطبيعة، وهي تتقاطع مع فكرة الطبيعة الأولى لدى فلاسفة العقد الاجتماعي بينما تختلف في تفاصيل تلك الحالة، فبينما هي حالة سلام لدى الطاوية فهي حالة حرب أو صراع لدى فلاسفة أوروبا.

أما المرحلة اليوتوبية الثانية كانت الكونفوشوسية والتي تجاوزت لاسلطوية الطاوية وإرتأت أهمية الرجال الحكماء لإدارة الدولة وتقديم النصح، واستلهمت فترة السلام العظيم كعصر ذهبي ينبغي السعي لإعادة تشكيله مرة أخرى في الحاضر، واهتمت بالأخلاق والتعليم كركيزتين رئيسيتين للنهوض والرقي بأخلاق الفرد من أجل تحقيق الدولة الفاضلة (أبو الفتوح، 2000: 27).

2- اليوتوبيا الهندوسية

يغلب على التقاليد الهندوسية اليوتوبية بجلاء فكرة العودة للعصر الذهبي والذي يطلق عليه "ساتيا يوجا"، الذي ساد فيه النقاء والكمال لما يقرب من 4000 عام مقدس أو 1728000 عام بشري، وبسبب الخطايا البشرية تتعرض الدولة الفاضلة للانحطاط لتصل إلى دولة "كالي يوجا"، والتي تشهد

دماراً أخلاقياً شاملاً وتستمر حتى تعود فترة العصر الذهبي ساتيا يوجا مجدداً (DUTTON, 2010: 240).

كذلك مثلت ملحمة "رامايانا" الهندية أحد أهم التقاليد اليوتوبية في آسيا الهندوسية والمسلمة والبوذية على السواء، وهي ملحمة شعرية من 24 ألف بيت للشاعر الهندي فالميكي، تصف فترة حكم الأمير راما التي مثلت عصراً ذهبياً للحُكم الصالح المثالي الذي ساده المساواة والعدل، هذه الملحمة كانت الإلهام الأبرز لسائر الرؤى اليوتوبية الهندية عبر العصور، وحديثاً كانت أحد أهم مصادر إلهام يوتوبيا غاندي (DUTTON, 2010: 241).

فقد رأى غاندي في يوتوبيا الهند القديمة – ممثلةً في ملحمة راما – أساس اليوتوبيا التي حلم بتحقيقها في الهند الحديثة، في مقابل ديستوبيا الغرب الحديث التي سيطرت عليها المادة والتنافس (سارجنت، 2016: 75)، وتمكنت يوتوبيا راما من التأثير في كل الرؤى اليوتوبية والفنية في الهند إلى يومنا هذا.

3- اليوتوبيا اليهودية

يتجلى في التقاليد اليوتوبية اليهودية مدى الاختلاف الذي قد يحدثه اختلاف الثقافات فيما بين مشروعات يوتوبية ذات خلفيات دينية متشابهة، كالديانتين المسيحية واليهودية، فقد ركزت التقاليد اليوتوبية المسيحية على الفرد وإمكان تحقيق كمالاته وخلاصه الخاص والشخصي عبر الدولة الفاضلة وعودته لجنة عدن، وفي المقابل جاءت المشروعات اليوتوبية اليهودية جماعية تحلم بالعودة إلى أرض الميعاد لتحقيق الخلاص الجماعي، وقد مثلت الصهيونية يوتوبيا يهودية تحلم بإقامة مدينة فاضلة لليهود بعد عقود الشتات (DUTTON, 2010: 233).

ومثل كتاب ثيودور هرتزل "الدولة اليهودية" رؤية يوتوبية عن الشكل الأمثل لوطن قومي يجمع اليهود من حول العالم ويجعل أحوالهم أفضل مما هي عليه، ويعدهم بدولة فاضلة تحقق سعادتهم المنشودة وخلاصهم الجمعي من خلال العودة مرةً أخرى إلى أورشليم المقدسة، وفي عام 1920 كان تأسيس ديجانيا أول كيبوتس يهودي صهيوني على الأراضي الفلسطينية أهم محاولة لتطبيق الرؤية اليوتوبية لهرتزل، ورغم الأماني الكبيرة التي دفعت كثيراً من اليهود للانتقال للكيبوتسات باعتبارها المُدن اليهودية الفاضلة، فإنها لم تحقق كثيراً من تلك الأماني وأصبحت الآن في مرحلة "ما بعد يوتوبية" (سارجنت، 2016: 46).

4- اليوتوبيا الفارسية

مثلت اليوتوبيا لدى الحضارة الفارسية قبل وخلال العهد الإسلامي ركناً هاماً من الفلسفة السياسية والأخلاقية لبلاد فارس، فينسب بعض المترجمين مولد أبو نصر الفارابي لبلاد فارس وهو من رواد الكتابة في المدينة الفاضلة وملامحها في الحضارة الإسلامية، كذلك تنسب بعض الأدبيات السياسية كتاب "كليلة ودمنة" للأدب الفارسي رغم أنها مترجمة من السينيكية الهندية، إلا أن كثيراً من المصادر تشير إلى أن يد الإضافة والتعديل الفارسية قد طالت كليلة ودمنة وطبعتها بطابع فارسي، وكليلة ودمنة يوتوبيا عن حيوانات وطيور ناطقة تتحدث عن الشكل الأمثل للحكم وتنظيم العلاقة بين الحاكم والمحكوم (MASROORI, 2013: 6).

وبينما يثور خلاف بشأن أصالة نسبة الفارابي وكليلة ودمنة للحضارة الفارسية، فإن ملحمة الإسكندر الأكبر من أهم التقاليد اليوتوبية الأصيلة في الحضارة الفارسية، وفيها قدم بعض الشعراء الفرس رؤيةً مثاليةً للدولة الفاضلة التي أسسها الإسكندر المقدوني، فظهرت تلك الصورة المثالية للحاكم الفاضل في ملحمة "الشاهنامة" أو "كتاب الملوك" للشاعر أبو القاسم الفردوسي، وشعر "إسكندر نامه" لنظام الكنجوي، وفيه يرفع نظام من شأن الإسكندر كنموذج مثالي للملك المسلم الصالح، وذلك في الجزء الأخير من خماسيته الشعرية (حسين وعباس، 2017: 4).

يتضح مما سبق أن اليوتوبيا كانت ذات حضور هام في كل الثقافات والحضارات التي وجدت قبل توماس مور وبعده، وأن كل حضارة تمكنت من صياغة تقاليد يوتوبية خاصة بها، حتى وإن اقتبست من "مور" فكرة الجزيرة المنعزلة التي لم يصل إليها أحد من قبل، فإن أحلام كل ثقافة ورؤاها بشأن ما هو الخير والسعادة والأفضل اختلفت بشكل كبير فيما بين الحضارات وبعضها، وداخل الحضارة الواحدة بين زمن وآخر، وبالتالي لا يمكن القول بأن اليوتوبيا غربية مسيحية بالأساس، خاصةً إذا تمكنا من توسيع نطاق تعريف اليوتوبيا لتشمل أنواعاً مختلفةً من الكتابات الأسطورية والملحمية والشعرية وأحلام العودة للماضي مما يجعل المفهوم أكثر استيعاباً للخيال الإنساني بشكل عام.

الخاتمة

تبين من استعراض تطور المشروعات اليوتوبية عبر التاريخ مدى أهمية اليوتوبيا كظاهرة فكرية سياسية وفلسفية في تطور التاريخ البشري، وإسهامها في دفع مسيرة التاريخ بحثاً عن عالم أفضل، ذلك الدفع الذي كان حيناً في الاتجاه الصحيح وأحياناً أخرى في الاتجاه الخاطئ، إذ شابت تلك المشروعات الخيالية إفراطاً في التفاؤل والمثالية جعلها عصيةً على التطبيق الواقعي، أو دفعها لحظة التطبيق نحو أخطاء ومشكلات نبعت من محاولات جعلها أكثر واقعية، وهو ما يثير إشكالية العلاقة الجدلية بين الخيال والواقع ويدفع باتجاه رؤية أكثر عمقاً لكلاهما، فلا يمكن فهم حركة التاريخ في الواقع دون الرجوع إلى تلك الأحلام السياسية الباحثة عن المدينة الفاضلة، كما لا يمكن تفسير تلك الأحلام السياسية من دون فهم السياقات التاريخية التي أُنتجت فيها تلك الأفكار، حيث تفاعلت مع بيئتها وقدمت رؤاها انطلاقاً من مشكلات الواقع، وهو ما يوضح الأسباب الكامنة خلف غموض مفهوم اليوتوبيا وصعوبات دراسته وتشابكه مع مفاهيم أخرى متقاطعة معه خاصةً مفهوم الأيديولوجيا.

وبتتبع التطور التاريخي لليوتوبيا نجد أهميةً واضحةً ووظائف متنوعةً نجحت اليوتوبيا في أدائها عبر مراحل مختلفة من التاريخ الغربي والشرقي، فهي كانت الملاذ الآمن لكثير من المفكرين هرباً من مشكلات الواقع في محاولة لتجاوزه وبناء عالم كامل موازٍ، وهي بذلك وفرت بيئةً شديدةً الحرية والانفتاح، وخلقت مجالاً واسعاً ظهرت فيه أفكار ثورية وخيالية ومتفائلة ورحبت بانفتاح كبير بكل اجتهاد فكري، فظهر عبر اليوتوبيا في عصورها المختلفة اقتراحات ومشروعات لم يكن ليصل إليها البشر دون تعالٍ واعٍ على الواقع واستغراق في الخيال الذي تدعمه اليوتوبيا وتوفره، ومن ناحية ثالثة مثلت اليوتوبيا رفضاً للواقع وأداةً هامةً لنقده بما جعلها وسيلةً ناجعةً لتغيير الواقع والتأثير فيه سلباً وإيجاباً، إذ عبر التعالي على الواقع والهروب منه قدمت اليوتوبيا للبشر رؤى مغايرةً لم تكن لتوجد دون خيال جامح يرفض الخضوع لآليات الواقع وقيوده وقوانينه، ودفعت البشرية باتجاه مطاردة الأحلام ومحاولة تحسين الوضع القائم عبر تقديم البديل الفكري الحالم، وبذلك فإن اليوتوبيا تُمثل جانباً رئيساً لتفسير تطور التاريخ وتُقدم إجابات هامة عن الكيفية التي تطورت بها البشرية عبر عصورها المختلفة.

قائمة المراجع

أولاً: المراجع العربية

1. أبو الفتوح، هالة، (2000)، *فلسفة الأخلاق والسياسة: المدينة الفاضلة عند كونفوشيوس*، القاهرة، مصر: دار قباء للطباعة.
2. أرسطوطاليس، (2016)، *السياسات*، ترجمة: أحمد لطفي السيد، بيروت، لبنان: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
3. أفلاطون، (2017)، *الجمهورية*، (ترجمة: حنا خباز)، القاهرة، مصر: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.
4. السعد، عطيات، (1997)، *الأمل واليوتوبيا في فلسفة إرنست بلوخ*، الإسكندرية، القاهرة: منشأة المعارف.
5. باومان، زيجمونت، (2017)، *الأزمنة السائلة والعيش في زمن اللايقين*، (ترجمة: حجاج أبو جبر)، بيروت، لبنان: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.
6. برنيري، ماريا، (1997)، *المدينة الفاضلة عبر التاريخ*، (ترجمة: عطيات أبو السعد)، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
7. حسين، إياد وكاظم، عباس، (2017)، شخصية الإسكندر المقدوني في الأدب الفارسي: شاهنامة الفردوسي أنموذجاً، بابل، العراق: *مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية*، 7 (1).
8. ريكور، بول، (2000)، *محاضرات في الأيديولجيا واليوتوبيا*، (ترجمة: فلاح رحيم)، بيروت، لبنان: دار الكتاب الجديد المتحدة.
9. سارجنت، ليمان، (2016)، *اليوتوبيا: مقدمة قصيرة جداً*، القاهرة، مصر: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.
10. كرم، يوسف، (2014)، *تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط*، القاهرة، مصر: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.
11. مانهايم، كارل، (1980)، *الأيديولوجيا واليوتوبيا: مقدمة في سوسيولوجيا المعرفة*، (ترجمة: محمد رجا الدريني)، الكويت: شركة المكتبات الكويتية.

12. مجاهد، حورية، (1999)، *تطور الفكر السياسي من أفلاطون إلى* محمد عبده، ط3، القاهرة، مصر: مكتبة الأنجلو المصرية.

13. موسى، سلامة، (2013)، *أحلام الفلاسفة*، القاهرة، مصر: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.

ثانياً: المراجع الأجنبية

1. Bloch, Ernest (1986). *The principal of hope:* (vol. 2), (trans. Neville Plaice, Stephen Plaice & Paul Knight), Cambridge: the mit press.
2. Dutton, Jacqueline (2010). 'non-western' utopian tradition . In g. Claeys (ed.). *The Cambridge Companion To Utopian Literature,* Cambridge : cambridge university press.
3. Fernando jw, b. N. (2018). Functions of utopia: how utopian thinking motivates societal engagement, *Personality And Social Psychology Bulletin, 44*(5).
4. Hassan, narin (2001). The quest for postcolonial utopia: a comparative introduction to the utopian novel in the new english literature. (r. Pordzik, ed.) *Utopian studies, 12 (1).* Pennsylvania: Penn State University Press.
5. Hertzler, Joyce (1922). *The history of utopian thought.* London: george allen & unwin, ltd.
6. Kumar, krishan (1987). *utopia and anti-utopia in modern times.* Oxford: basil blackwell.
7. Levitas, Ruth (2001). For utopia the limits of utopian functions in late capitalist society . In b. Goodwin (Ed.), *the philosophy of utopia.* London: frank cass publishers.
8. Manuel, Frank & Manuel, Fritzie (1997). *Utopian thought in the western world.* Cambridge: belknap press of harvard university press.
9. Martell, Luke (2018, october). Utopianism and social change: materialism, conflict and pluralism. *Capital and class journal, 42*(3).
10. Masroori, Cyrus (2013). ,Alexander In The City Of The Excellent: A Persian Tradition Of Utopia. *Utopian Studies, 24*(1). Pennsylvania: Penn State University Press.
11. Moylan, Tom (2006). To Stand With Dreamer . *The Irish Review, (34).* Ireland: Cork University Press.
12. Mumford, lewis (1928). *The Story O Utopias* (Vol. 4). New York: Boni And Liveright Publishers.

13. Sargent, Lyman & Dutton, Jacqueline (3013). Introduction: Utopias From Other Cultural Traditions, *Utopian Studies,* (24). Pennsylvania: Penn State University Press.
14. Sergent, Lyman & Claeys, Gregory (1999). *The Utopia Reader,* New York: New York University Press.
15. Wells, H. G. (1906, February 26th). *The So Called Science Of Sociologhy*. In: W. Clare Market, (Ed.), At The School Of Economics And Political Science (University Of London), Retrieved august , 2019 from: https://journals.sagepub.com/doi/abs/10.1177/0038026106SP300134
16. Wells, H. G. (1908). *A Modern Utopia.* London: Odhams Press Limited.
17. Widdicombe, Richard (1992). Early Histories Of Utopian Thought. *Utopian Studies, 3*(1). Pennsylvania: Penn State University Press.
18. Yorke, Christopher (Winter/Spring 2004.). *"The Normative Role Of Utopianism In Political Philosophy"* (Vol. Vol. 11). New Thinking Journal.